ديوان هناك

شعر

مظهر عاصف

ويضحكُ إذ
أغازلُه
ولا يدري
بأنّي من
ضواحكهِ
بأنّي
شمعدانُ
زاب...

الطبعة
الأولى
٢٠٢٢

ديوان: هُنَاك.

شعر: مظهر عاصف.

تأليف: «مظهر عاصف» أحمد عودة

الطّبعة الأولى 2022م 1443هـ

جميع الحقوق محفوظة للجمهور

لوحة الغلاف للفنّان: ديلاور عمر.

دار الجيل العربي للنّشر والتّوزيع

عمّان – الأردن **Amman - Jordan**

تنويه عابر:

يُسمحُ للقارئ بإعادةِ إصدار هذا الكتاب وأيّ جزءٍ منه أو تخزينه؛ واستنساخه ونقله كليًّا أو جزئيًّا، وفي أيّ شكلٍ وبأيّ وسيلة، سواء بطريقة إلكترونيّة أو آليّة، أو الاستنساخ الفوتوغرافي، والتّسجيل واستخدام أيّ نظام من نُظم تخزين المعلومات واسترجاعها، ولا يلزم الحصول على إذن خطّي مسبق من النّاشر بناءً على رغبة الشّاعر.

مُقدمة:

وُجِدتْ هذه الرّسالة في حقيبةِ شاعرٍ مغمورٍ يُدعى «مهجور الرّاوي» بعد أن حال الموتُ بينه وبين وصولِ هذه الرسالةِ لحبيبته، وقد كُتبَ على مُغلّفها بخط أنيق: «اعترافات ميت».

الموتُ الأصغرُ يا حبيبتي تمهيدٌ للموتِ الحقيقيّ، وهو: فراقنا لمَن نُحِب، أو لعلّه الرّسالةُ الأهمُّ الّتي نعي من خلالها أنّنا راحلون عن بعضنا البعض لا محالة، ومفارقون كلَّ شيء ضمنَ أقدارنا الوقتيّةِ على سطح هذه الأرض.

شعرتُ بهِ يومَ تزوّجتِ بآخر، ومُنيتُ بهِ مجدّدًا بعد موتِ أمِّ أولادي؛ سيما بعد الفراغ والصّمتِ الرّهيب الّذي خَيَّمَ على أرجاء المنزلِ برحيلها المفاجئ، وها أنا ذا أجدُني مدفوعًا بالكتابةِ إليك عبر هاتفٍ داخلي لم ينفك يحرّضني على ذاك، مُدركًا أنّها آخرُ ما قد أكتب؛ أو آخرُ ما ستقرئِين لي.

«قهوةٌ مالحة» اسمٌ لافت لعنوانِ قصّةٍ قصيرة قام بطلُها بطلبِ قهوة مالحة من النّادلِ في ذاك المقهى القديم بصوتٍ واثقٍ؛ تسلّلَ لمسامعِ تلك الّتي أرادها قصدًا أن تسمعَه، ووسطَ دهشةِ النّادل ودهشتها راح يحتسيها بلذّةٍ غريبة متغنّيًا بمذاقها اللّذيذ.

تزوّجَها لثلاثينَ عامًا إثرَ علاقةٍ سريعةٍ مجنونةٍ بعد أن حدَّثَها عن ولعِهِ بنكهةِ قهوتهِ المالحة، غير أنّها أحصَت من خلالِ مذكّراتهِ عددَ المرّات الّتي استفرغَ بها كلّما قامَ بتمثيل ذاك الدّور؛ حيث إنّه لم يفعل ذلك إلّا ليستدعي اهتمامَ من أحبَّ مصادفةً فلم يجد وسيلةً للقفزِ إلى مقعدها غير هذه الحيلة. ورغم كلِّ هذا فلم يستغرب النّادلُ حينما طلبَت إليه تلك العجوزُ الوحيدة الّتي جلست في مقعدِها المُعتاد فنجانَ قهوة مالحة راحت ترتشفها بنَهمٍ غريب...

قد ماتَ يا حبيبتي دون أن يخبرَها الحقيقة، أمَّا حقيقتي فأودُّ أن تعرفيها قبل موتي؛ لا لأنّها ستشكّلُ فارقًا عظيمًا في تاريخ البشريّة أو في ذاكرتِك، بل هي رغبتي بالحديث عن نفسي دونما تحفّظ وتجميلِ حقائقَ مللتُها، أو رغبتي بالكتابةِ فقط من أجل الكتابة بعد أن شاخَ قلمي وتقوّسَ ظهرُه.

جميعُهم كما تعلمينَ تغنَّوا بالقهوةِ وصنعِها، بل وبطقوسها أثناء إعدادها وشربِها على الشّرُفاتِ والنّوافذ وطاولاتِ العمل والكتابة، وقد صادفتُ كثيرًا ممّن يعانون مِن صداعٍ رهيب _على حدّ وصفهم_ لأنّهم تأخّروا عن احتساء قهوتهم الصّباحيّة على غير العادة، ولطالمَا حدثتِني وبعثتِ لي بصورِ كوبِ قهوتك الأنيقِ والّذي لا تشعرين بطعمها المميّز إلّا من خلاله، لألعنَ ذاك الكوب بعدما كُسِر _لا سامحَه الله_ واضطررتُ لإيجادِ شبيهٍ له بعد رحلةِ عذاب تسوُّقيّةٍ طويلة.

كثيرًا ما بعثتِ لي صورًا ويداك تحتضنان ذاك الكوبَ _ضمن مشهدٍ ابتكَرَتهُ من حيثِ الحالة الحميميّة والتّصويريّة لليدين والكوب ممثلاتُ وعارضاتُ دورِ الأزياء في بعض العروض والأفلام العالميّة؛ وهنَّ يرتدينَ الكفوفَ الصّوفيّة الّتي تغطّي بالعادة راحةَ اليد وظهرَها ونصفَ الأصابع فقط_ مُستَندةً بصدرك على قدميك بعد ضمِّهمَا بطريقةٍ مُتقنة.

لم أحدّثكِ مُسبقًا أنَّ كلَّ ذاك لم يهمّني يومًا، وأنّني كنتُ كاذبًا بتفاعلي معك، ففي الحقيقة لم أكن من عشّاق القهوةِ، ولم تكن من أولوياتِ يومي مُطلقًا، فقد كنتُ حال استيقاظي أشربُ الماءَ الدّافئ أحيانًا أو العسل والأعشاب، ثمَّ أمارسُ عملي اليومي وأثناء ذلك قد أحتسيها أو أحتسي الشّاي أو العصير أو أيّ شيءٍ آخر.

وكثيرًا ما توقفتُ أمامَ مقاهي الشّوارع السّريعة وطلبتُ إليهم فنجانَ قهوةٍ حُلوة بوجهٍ ثقيل شاربًا إيَّاها بكوبٍ كرتونيٍّ يمتازُ بصناعتِه الرّديئة دونَ شغَفٍ يُذكر.

قد تمرُّ الأيّام دون ذلك، وقد أحتسيها لعشرين مرّة في اليوم مصادفة، فليست من الأشياء المُقدّسة الّتي أحترم خصوصيّتها أو حضورها مِن غيابها، ناهيك أنّي لا أجيدُ إعدادَها بل كلّما أعددتها تركتُ الغازَ مُلطَّخًا بها كلوحةٍ رديئة رغم حرصي ألّا يحدثَ ذلك؛ علمًا أنّني لم أقابل يومًا امرأةً تجيدُ إعدادَها، فجميعُ ما شربتُه من قهوةٍ مميّزة كانت من إعداد رجلٍ ما.

ثقافةُ القهوة مُستوردةٌ بكلِّ تفاصيلها، فلا زلتُ أذكر مجمّع «رغدان- عمّان» حينما كنتُ صغيرًا حيثُ كان جميعُ طلاب الجامعات والعاملين والحرفيّين يتزاحمونَ صباحًا على أكشاك الشّاي ومطاعمِ الفلافل؛ قبل ركوبهم الحافلاتِ الكبيرة القديمة، بل وما زلت أذكرُ فناجينَ القهوة الصّغيرة جدًّا الّتي كانت أمّي تقدّمُها للضّيوف؛ والّتي إن رُصَّت على "الصّينيّة" فحملُها والسّيرُ بها نحو غرفة الضّيوف مِن المطبخ كان شكلًا من أشكالِ السّير على الحبال؛ خشيةَ انسكابِ بعضها على حوافِّها أو حواف الفناجين، هذا ولن أنسى أنّ تلكَ القهوة أُخذِت من كيسٍ ورقيٍّ وُضِع في الثّلاجة؛ بغيةَ الحفاظ على نكهتها ومنعِ الرّطوبة من التّسلّل إليها لقلّةِ استعمالنا لها.

لم أرَ قديمًا فيمن عرفت مَن وضعَ بجانبها كأسَ ماء أو قطع شوكولا، لذا حين أصابت عدواها الجميع رحتُ أتساءل لماذا يتبنّى الآخرون الثّقافات الأخرى متعصّبين ممّن لا يفعلون ذلك؛ وكأنها ديانةٌ يكفرُ مَن لا يتّبعها أو يقوم بها؟! سيما حين كنتُ أُنتقَدُ كوني شاعرًا عليهِ أن يتذوّقَها سادةً لا حلوةً؛ فإن تعجَّبتُ ودافعت وضحكت واستنكرتُ قالوا: شاعرٌ ويشربها حلوة؟! غريب جدًّا... وكيف تكونُ شاعرًا مع كلِّ هذا؟ وما زلتُ حتّى اللّحظة أجهلُ وجهَ العلاقة بينَ القهوة السّادة وبين الشّعر؛ بل بينَ العشقِ لهذا المشروبِ السّاخن والتّغزّل به أكثر من الأشياء المكتنزة بالجمال المحسوس والملموس في حياتنا.

أمّا «فيروز» فأنتِ تعلمين جيّدًا أنّني لا أحبُّ سماعَها أبدًا. كثيرًا ما جهلتُ سببَ ذلك مع أنّها أسرَت قلوبَ العرب صباحًا بصوتها الملائكيّ كما يصفونه.

مذ نعومة أظفاري وأنا أسمعُها في كلِّ مكان صباحًا: في الرّاديو، في الشّارع، من نوافذ الجيران، في مجمّعات السّرافيس والباصات، في كلِّ مكانٍ سوى الجامع حقيقة. لكنَّ صوتَها لم يرق لي بتاتًا؛ فلطالما شدَّني الصّوتُ الرّخيم والجهوريّ؛ متصالحًا مع ذائقتي الّتي تطربُها لهجاتُ الفلّاحين والبدو والمصريّين ناهيك عن الفصحى الأم.

خالفَ ذوقي جميعَ أفراد عائلتي ومجتمعي والنّاسَ كافة، حتّى أنّني لم ألتقِ يومًا بمن لا يُطرب لسماعها غيري، وعليهِ فإنّني لم أسمعها مثلَك صباحًا مع قهوتي، ولا تلذذتُ بصوتها المُخمليّ، ولا ذكرتُ ذلك في قصيدةٍ من قصائدي، ولا تغنّيتُ بها ولا بمقطعٍ لها طوال عمري، بينما من الممكن أن أدندِنَ بمتعةٍ غريبة ما يتناهى إلى مسامعي من أغانٍ هابطةٍ _كما يصفونها_ دون وعيٍّ منّي.

نعتني أحدُهم حين أخبرتُه بذلك يومًا بغريبِ الأطوار معلّقًا: «خالِف تُعرف». لكنّه استشاطَ غضبًا أثناء تناولنا الطّعام بعد اكتشافه أنّني لا أطيقُ طعمَ أو رائحةَ الزّيتون مُطلقًا، وأن حبّةً واحدةً لم تدخل جوفي ولم أستسغها طوال حياتي.

كان أحيانًا يقسمُ بكلِّ ما هو مُقدّس أنّني أدّعي الاختلاف لا غير؛ وشدّدَ على ذلك حين أدرتُ ظهري للبحرِ الّذي لا تغريني أحوالُه

وطقوسُه وهالتُه بما فيها؛ ورحتُ متأمّلًا الجبالَ الصّخريّة بمتعةٍ عزَّ نظيرها.

أمّا زميلي الّذي كان يتردّدُ على مكتبي أثناء فترةِ المناوبة اللّيليّة؛ واعتادَ على رؤيتي أقرأ أو أكتب أو أُعَدِّل قصيدة ما، ناهيكَ عمّا يتناهى إلى مسامعِه أحيانًا مِن محادثاتي ونقاشاتي الأدبيّة مع بعض الأدباء عبر الهاتف؛ في الوقت الّذي يستمعُ فيه لبعضِ الشّجارات مع زملاءَ لي، أو بعض الحواراتِ المُباشرة هنا وهنا الّتي تفرض نفسَها عليَّ أحيانا، ويراقبُ بفضوله طريقتي الحياتيّة في التّعامل والحديث والأجوبةِ والغضبِ بشكل عام؛ فقد قال لي يومًا بكلِّ صراحةٍ ووضوح: «لو لم أشاهدك وأنت تكتب بعضَ القصائد أمامي، وأستمع لحواراتك على الهاتف لما صدَّقت أن مَن يكتبُ هذا الشّعرَ والنّصوص الأدبيّة هو أنت، فقد تخيلتُ أنّ الشّاعر شخصٌ ذو شخصيّة رقيقة هشّة تدمعُ عيناهُ لعصفورٍ حرفهِ قبل أن يطلقَه إلى الفضاء».

ضحكتُ حينها حتّى استغربت وهو يحملقُ بوجهي غيرَ مصدّق أنَّ نصّي الرّقيق الّذي بين يديهِ صدرَ مِن شخص وجّهَ قبل قليل كلامًا قاسيًا لأحدهم؛ بفظاظته دون أن يخجلَ منه طالما أنَّ المقابلَ امتازَ بالصّفةِ ذاتها.

لا أعلمُ حقيقةً مَن رسمَ صورةَ الشّاعر تلك في أذهان النّاس؟! أو مَن أقنعهم أن الشّاعر إنسانٌ يتوجّب عليهِ أن يكونَ مُرهفًا ورقيقًا حدَّ الدّمعة والانكسار لأبسط المشاعر؟

أمَّا الشّاعر الّذي يسكنُني أو يعجبُني فهو مَن يكتب الحالةَ دون اشتراطِ القصيدةِ عليهِ أن يحياها، أو ربّما مَن يترجمُ لغةَ الواقع غير أنّه قد لا يعيشُ ذاك الواقع مطلقًا، فالشّعرُ الحقيقيّ لا محالة مرآة المجتمع؛ لكنّه لا يُجبر الشّاعر أن يقفَ أمامها كي يرى نفسه من خلالها، فهو الفردُ في منظومة كبيرة يأخذ ما راق له منها، ويتركُ ما أراد.

ما أعلمه أنّني لم أطالب عائلتي يومًا بخلقِ جوّ من الهدوء لي لأكتب، ولم أمارس طقوسَ الجنون والتّوحّد الّتي سمعتها مِن وعَن الشّعراءِ الآخرين، وكيف أنّهم اعتزلوا المجتمع والنّاس ليتوحّدوا؛ ويتماهوا مع نصوصهم الإبداعيّة!

رأيتُ الكثيرَ مِن الشّعراءِ الّذين يرتدون القبّعات واللّفحات الحمراء، وسمعتُ حديثَهم عن العزلةِ والهدوء والعالم المجنون الّذي ينتمون إليه؛ بينما رحت أحدّثهم عن قصيدتي الّتي كتبتها في ورشة إصلاح سيّارتي بين الشّحمةِ والزّيت والآلات المزعجة، ثمَّ حدَّثتهم عن جارتي «أم سعيد الأعرج» الّتي حملتُ عنها أكياسَ الخضار بعد أن التقيتها مصادفة في حارتنا، وحديثي معها عن «سعيد» الّذي سُجن بسبب تعاطيه "الحشيش"؛ واعدًا إيّاها أن أزورها قريبا بعد إقناعي لها بالخضوع لعمليّةِ تبديل المفاصل أسوةً بصاحبِ البقّالةِ «أبي جود» والّذي عاد حصانًا _حسبَ وصفه_ بعد خضوعه لتلك العمليّة.

هذا وتعلمينَ جيّدًا أنّني ناهزتُ الآن السّادسة والثّمانينَ من عمري ولم أحظَ بالشّهرة، ولا أضفتُ للمكتبة العربيّة كتابًا واحدًا، كما أنّك تعلمينَ أنّني لم أفز بأيّ جائزةٍ تُذكر.

كلُّ ما فعلته في حياتي أنّني كتبتُ الشّعرَ فقط مُطاردًا تلك الأوهامَ العريضة الّتي لم تتحقق، لكنّني ومع ذلك راضٍ عن نفسي تمامًا، أو لأقل: راضٍ عن فشلي تمامًا.

فالفشلُ الّذي يأتي بعد محاولاتٍ ومحاولاتٍ كثيرة أو عمل دؤوب فشلٌ لذيذ، هذا لأنّه يفسحُ المجالَ للقلب والعقل أن يلعنا النّجاح كمناوئٍ شريفٍ، وخصمٍ كريم. ومن الطّرائف أنّني كلّما طلبتُ من منظّمي الأمسيات أن أُلقي شعري مباشرة دونما مُقدّمٍ وتقديم؛ مُعلّلا أنَّ الشّعرَ يتكفّلُ بذلك ظنّوا تهرّبي غرورًا، وطالبوني باحترام البروتوكولات الأدبيّة لأجدَ نفسي بعدها أمام حيرةٍ مكرّرة؛ وهي أنّني لا أمتلكُ سيرةً متعدّدة الأسطر المتتالية كباقي الشّعراء، ولا شهادة دكتوراه بالأدب أو النّقد، ولا تلك المؤلّفات والجوائز، ناهيك أنّني لا أنتمي لأيّ رابطةٍ أدبيّة... الحقيقة هي أنّني لم أكن أمتلك شيئًا في الحياة سوى قصائدي.

قد يتناهى إلى تفكيركِ الآن ما قلتهِ لي مرارًا: "كان عليكَ أن تضعَ رأسَك بين الرّؤوس أيّها الغبيّ... أن تفعلَ ما فعله الكثيرون عبر مشاركتهم بالمسابقات أو طباعة الدّواوين والرّوايات". سأصدقك القول لأنّني فكرتُ بذلك، بل وشاركتُ ببعضها غيرَ أنّي لم أَترشّح مطلقًا لأيّ مسابقة، وعليه فلم أفز حتّى بالمرتبة الأخيرة

كما حدث مع غيري فأحجمتُ عن ذلك؛ احترامًا لأحرفي الّتي أراها على ورقي، وملامحي الّتي تجبرني المرآة أن أسرّحَ شَعري أمامها يوميًّا. هذا بالنّسبةِ للمسابقات مُقتنعًا أنّ أغلبَ لجان التّحكيم في وطننا العربيّ بحاجة لفرزهم ومعرفةِ إمكاناتهم، أمّا عن طباعةِ ما كتبتُ فقد كنتُ كلّما فكرتُ بذلك طردتُ الفكرة بسببكِ يا حبيبتي، وبسببِ مَن يحيطون بي من قرّاء وأصدقاء.

أنتِ وهم وجميع مَن أعرفهم صفّقوا لي وتغنّوا بشعري أمامي فقط، بيد أنّهم راحوا يتغنّون بشعراء الموضة الثّقافيّة على صفحاتهم الشخصيّة، أو عند حديثهم العام كنوع من سعةِ محصولهم الثّقافي.

لا زلتُ أذكر ذاك الاتّصال بيننا حينما حدّثتِني عن ترنّمكِ بقصيدتي «الصّخرة» والّتي استمعتِ لها على حدّ قولك عشرين مرّة في يوم واحد. فرحتُ حقًّا أنّها لاقت استحسانك، غير أنّي صُدمت حينما نشرتِ على صفحتك الشّخصيّة الزّرقاء عبارةً لشاعرٍ آخر لا ترقَى للخاطرة مُذيّلةً إيّاها بجملة: «مِن أجمل ما قرأتُ هذا الأسبوع». قلتُ في نفسي: إن كانت حبيبتي وهي حبيبتي والّتي عليها أن تنظرَ لي بعين الرّضا، والّتي على قرد شعري أن يتمثَّلَ أمامها غزالًا تُروّجُ أشعارَ غيري وتتغنّى بسواي، فكيف أقتنعُ أمامَ نفسي بأنّني شاعرٌ يستحقُّ أن يُقرأ؟

ثمَّ إنّني وقفتُ أمام مفارقة غريبة وهي أنّني لا أستطيع الطّعنَ بذوقك طالما تذوّقتِ قصائدي؛ فكيف لك أن تتذوّقي العمقَ

والتّفاهة؟ أو الجمال والرّداءة؟ أو الفلسفة والسّطحيّة التّافهة في الوقتِ ذاته؟ طعني بذوقكِ هو طعنٌ مباشرٌ في شعري، وهذه هي الحقيقة المؤلمة.

غيرَ أنَّ هذا لم يكن السّبب الوحيد؛ فأعظمُ الخطوب هو عند قيامي بكتابةِ قصيدة والعمل عليها لأيّامٍ وأيّام؛ وبذل طاقةٍ فكريّةٍ وجهدٍ مضنٍ للخروجِ بها بأفضل حلّةٍ بديعيّةٍ وبلاغيّة؛ معتقدًا بعد نشرِها للعامّة أو مشاركتي بها في أمسية شعريّة؛ بأنّها ستنقلني نقلةً نوعيّة من منابرِ الهواة إلى منابرِ الاحتراف والجموع الغفيرة والشّاشات المرئيّة.

وفي كلِّ مرّة، وبعد كلِّ قصيدة كنتُ أعود بخفيّ حنين؛ بل بلا خفّين أصلًا. لذا، ونكايةً بكلِّ شيء كنتُ أكرّرُ القصيدةَ في كلّ مكان، وأنشرها عشراتِ المرّات لعلَّ أحدَهم يدرك جماليّةَ هذه القصيدة أو تلك. قد لا تصدّقين أنَّ هناك مئات القصائد حبيسةَ الأدراج حتّى هذه اللّحظة إذ لم أنشرها أو ألقِها يومًا لأنَّ أيًّا من قصائدي لم تأخذ حقّها بالاستماع أو القراءة أو التّحليل العابر...

أليسَ من السّخيفِ يا حبيبتي ألّا يقرأَ لكَ بعد سبعينَ عامًا من احتراف الشّعر عشرونَ قارئًا فقط؟ أليس من السّخافةِ يا حبيبتي أن يحظى مقطع فيديو لراقصةِ باليه في برنامج المواهب بملايين المشاهدات؛ بينما لا تحظى قصيدةٌ نزفتُها من روحي بمئة مُشاهدٍ فقط؟

أحدُهم يا حبيبتي قال لي بأنّه يدخّن ثلاثَ سجائر ويحتسي فنجان قهوة كاملًا عند سماعه قصيدة جديدة لي. هذا مثلًا عندما طلبوا منه أن يتحدّث عن شعرائه المفضّلين ذكرَ ألفَ شاعر وشاعرة؛ غير أنّه نسيَ اسمي معتذرًا بيني وبينه عمّا أنساهُ الشّيطان إيّاه. هل قصَدَ ذلك؟ أم تراه تقصَّدَ ذلك؟ لا يهمُّ يا صديقي هذا الآن... لا يهم.

أمَّا صديقي صاحبُ القرارِ الّذي نسيَ أن يُرشّحني لمهرجان دوليّ ضاربًا بيده على جبينهِ؛ لاعنًا الشّيطان ذاتَه وبالطريقةِ ذاتِها كونه مَن يقف خلفَ جريمةِ النسيان هذه ، فقد كرّر الحادثة مرّتين، ثمَّ لم يعد يضرب على جبينه، أو يشتم شيطانَه بعد ذلك؛ إذ لم يعد يعتذر، ولم أعد بدوري أعاتبُه وأغضب منه، فحين يتشابه كلُّ شيءٍ مع كلِّ شيء في الحياة يا صديقتي تتجمّدُ ردودُ الفعل في دواخلنا قبل ألسنتنا المُرهقة.

كلُّ ما رحتُ أفعله هو أن أكتبَ بانتظار الحظِّ أو الصّدفةِ فقط، ولأنَّ ذلك لم يحدث فقد كوَّمتُ مئاتِ القصائد والنّصوص والمقالات وبضعَ رواياتٍ على رفوفِ مكتبي؛ راضيًا بفشلي الجميل مُتغنيًا بقول القصيبي رحمه الله:

«فإن مضيتُ فقولي لم يكن بطلًا... لكنّه لم يقَبِّلْ جبهة العارِ»

الرّافضون يا حبيبتي انتقدوا القبحَ والسّخافةَ لكنّهم لم يحاربوا القبحَ بالجمال، ولا السّخافةَ بالفكر والمفكّرين. الرّافضون جلسوا يتفرّجون على انهيار الذّائقة بينما منعتهم أنانيّتُهم مِن مدحِ مَن

يستحقُّ، فبزغَ جرّاء ذلك نجمُ أدباء الصّدفةِ والطّفرات الأدبيّة، وهُمِّشَ الأدباءُ بحق جازمًا أنّني أحدُهم.

احتجتُ لإيمانك الكامل بي. احتجت لإيمان مَن لا يستوردونَ أذواقَهم من عقول الآخرين بي، لذا أحجمتُ بالكاملِ عن "الشِّلل" الأدبيّة، فلم أُكوِّن علاقاتٍ شخصيّة مع أصحابِ العقول الأدبيّة التّجاريّة. لم أنافق، ولم أداهن، ولم أسعَ خلفَ أحدٍ لأصلَ تابعًا له؛ لكنّني حاولتُ دفعَ مَن يستحقّ إلى الأمام طالما أنّه لا يستحقّ أن يكونَ في المؤخّرة؛ حتى وإن كنتُ في قرارةِ نفسي أدرك أنَّ هذا يتمنّى أن أكونَ في المؤخّرة خشيةَ أن أتقدّمَه.

وها أنا الآن على فراشِ الموت ما زلتُ مؤمنًا بما آمنتُ به طوال عمري وهو: إن لم يقدّمني شعري بكامل شخصيّتي ومبادئي وقيمي وقضاياي فلا حاجة لي بالوصول إلى ما أردت، وإيّاكِ أن تقولي أنَّ سببَ إخفاقي في الأدب مردّهُ إلى عدمِ تعلّقي بالقهوةِ وفيروز والبحر... إن كان ولا بدّ فليكن السّبب هو عدم استساغي وتذوّقي لحبّات الزّيتون؛ فهي الشّيءُ الوحيد الّذي تمنّيتُ أن أحبَّه وأتلذّذَ به في الحياة ولم أستطع _ كما اعتدتُ وعوّدتني الأيّام_ تحقيقَ ذلك...

إهداء:

إلى الّتي أنشدَت كوبَ شايي كما لو أنّه كوبُ شايِها؛ فارتَشفتَهُ بطريقَتي وتذوّقَته بأسلوبي وتحدَّثَت عنهُ كما أردتُ للحديث أن يكون، أو كما أردتُ للمزاق حين ترتَشفُه العقولُ أن يكون، فأشاعَت بصوتِها الدّفءَ فيه بعد أن تجمّدَ لسنواتٍ وسنوات دونَ أن يحتسيه أحد .

إلى: حُداء الرّوح.

أيقونةٌ أخرى

في صباحِ الموتِ نسألُ كلَّ حيٍّ أينَ حلَّ الموتُ فيهِ؟

وأينَ في غدِه يكونْ؟

في صباحِ الموتِ تنتظرُ التّوابيتُ الطّعامَ

ولا تقرمشُ لحمنَا

إلّا إذا رشّت ملوحتَها على الطّبقِ العيونْ

ها نحنُ تذبحُنا الرّصاصاتُ القصيرةُ

حينَ لا يُحنى لها منّا القَوامْ

ها نحنُ أقربُ ما نكونُ مِن التقاءِ الأرضِ طوعًا للغَمامْ

سبعونَ عامًا والكيَانُ يُلقّن التّوراةَ للجدرانِ

للأخشابِ

للأنعامِ

للأشباحِ.. للنّارِ الّتي..

حرقَت صدى اللّغةِ الهجينةِ في تنانير الكلامْ

الضّادُ زيتونُ المدائنِ

شرقُها المغموسُ في وحلِ الظّلامْ

لكنّه المخبوءُ في هذا البقاءِ المُرهقاتِ سنينُهُ

في نُطفةٍ تجري لتسكنَ قبرَها

أو قبوَها

أو كي تُرتّقَ مثلما اعتادَ النّخيلُ صفيحَهُ

وشقوقَ أوجاعِ الخيام

«شيرينُ»

آخرُ ما يقالُ هو الّذي دومًا تليقُ بهِ البداية

اللّاجئونَ حكايةٌ لم تنتهِ

أوَ لستِ راويةً لها؟

حكَّاءةً لفصولها؟

أو لم يكن هذا الصّهيلُ ال تطلقينَ مُعذِّبًا ومُعذَّبًا؟

فلمَ أراحكِ مَن يشاءُ عذابَنا من كلِّ فصلٍ في الحكاية؟

النّازحونَ وأنتِ منهم لم يخافوا خوذةً يومًا

وفُوّهةَ البنادقْ

كلُّ الدّروبِ بنارِها وسعيرِها

تُفضي _كما أقسمتِ يومًا_ للحدائقْ

مخنوقةٌ _أدري_ قصائدُنا المليئةُ بالرّثاءْ

مجروحةٌ _أدري_ مآقينا الشّحيحةُ بالبكاء

مملوءةٌ تلك الغياباتُ.. اللّقاءاتُ الأليمةُ.. بالشّقاءْ

قد كنتِ بارعةً بهذا الموتِ

بارعةَ الرّحيلِ كما عهدنا في الظّباءْ

قد كنتِ بارعةً بنقلِ الشّعرِ من أرضِ القصيدةِ للفضاءْ

فتعاظمي مثلَ التّراب ال ليسَ يعرفُ مُنذ أن كانت فلسطينٌ لنا إلّا البقاء.

حواري النّور

سَأرثي لكم يا سادتي نفسي

وأخبرُكم عن القلبِ الّذي سكنتْ

به الفوضى ولم يَعشقْ

عن الطّفلِ الّذي أمضى

طفولَتَه على الأوراقِ مُنتظِرًا ولم يُقرأْ

عن الإنسانِ كيف يباتُ مشتعلًا ومنطفئًا ولا يُحرق

وأخبرُكم عن الأحلامِ

كيفَ تموتُ حالمةً

عن الآمالِ كيف تظلُّ شـرنقةً ولا تُخلَقْ!

سـآخذُكم إلى عمّانَ

حيثُ الخيلُ والمَربَطْ

فهل أخبرتُكم يومًا

بأنَّ الأرضَ للإنسـانِ قد تشـهدْ؟

وأنَّ القلبَ في عمّانَ يبدو جُرحُه أصدقْ؟

وأنَّ العشـقَ يبدأُ من حواريها

ومن ضحِكاتِ مَن فيها

ومنها كلُّنا نبدأ

سآخذُكم إلى حاراتِها ليلًا

فإنّ اللّيلَ في وطني له سحرٌ عروبيٌّ

وأشفارٌ من الأقمارِ كي يُهدي لنا الرّونقْ

سنبحرُ في شوارعِها

وفي فيروزِ عينيها بلا زورقْ

سأخبرُكم بأنَّ القدسَ في عمّانَ

مثلُ القدسِ للقدسِ

وأنَّ القدسَ إنْ غرقتْ

ببحرِ الغربِ تلحقُها

قُرى عمّانَ كي تغرقْ

وأنَّ القدسَ عمّانيّةُ الأوصافِ

ذاتُ الوجهِ والعينينِ

ذاتُ الخدْ

دعوني في رثاءِ النّفسِ

كي أبكي على وطني

لعلَّ الدّمعَ يخبرُكم

بأنّي مثلُكم أعشقْ...

السيّدةُ

فلسطينيّةٌ أنتِ؟

وراحَ يقلِّبُ الدّفترْ

ويكتبُ قبلَ أن يسألْ

وتُهمتُها عُروبتُها

كتُهمةِ جدِّها الأولْ

وتُهمتُها دماءُ العُرْبِ

تجري في خواصرِها

فما حملَتْ سوى خَنسَا

ولا وضَعتْ سوى حنظلْ

ولم تَخرُجْ من الشّفتينِ

بعضُ حروفِ قسوتِها ولم تفعلْ

هي الأشجارُ إنْ قُصَّتْ

بها الأغصانُ أو ذَبُلتْ

تظلُّ جذورُها للجُرذِ

سُمًّا ناقعًا... مَقتلْ

هي الأحجارُ في يدِها

تكادُ بأن تعانقَها

لعطرِ الكفِّ مُنتشيًا مع الزّعترْ

هي الأثوابُ إن غُزِلتْ

وراقصَ غَزلُها جسدًا

ترى في رسمِها يافا

وفي تطريزِها المَجدَلْ

ومنها يقطُرُ التّسبيحُ

تمتمةً وهمهمةً

فهل في الأرض مِن شبرٍ

وإلّا سَمْعَه أرخى؟!

وإلّا قلبَه أرسل؟!

فلسطينيّةٌ أمّي

ويعلمُ مَن رأى أمّي

بأنَّ حضورَها الأجمل...

حديثُ الرّبابة

في بلادي موطنُ البدوِ

وعزفِ السّنديانْ

والكفافِ الحُمرِ إن لُفَّت كزهرِ الأقحُوانْ

موطنُ البدرِ المعتَّقِ في تراتيلِ الزّمانْ

حيثُ شعري

نبضتي الأولى

وخربشَةُ البيان

وطنٌ على الحسنِ استوى

وبهِ الهوى ولهُ الهوى

نهرٌ يعمّدُ ربوةً

شيخٌ يعانقُ زعفَرانْ

في بلادي كلُّ شبرٍ باتَ نبضًا مِن حَنان

وبه المهورُ تسابقَت

وتراقصَت تحتَ الغَمام

وبهِ العذارى السّابغاتُ مَدارقًا

وبه حرائرُنا الحِسَان

والعينُ في أعطافِها

تحنو... فتبتسمُ الحِفان

لا لاءَ تعرفُ

لا الأناملُ تَنثني

فكأنّها بُسِطَت بديدَنِها اليدانْ

في بلادي حيثُ يمتدُّ الصَّنَوبرُ شامخًا

حُرَّ السّنِان

وترى المضاربَ هاجعاتٍ

فاتناتٍ

ساحراتٍ

عبر أسرابِ القَطا

عبر المَها

عبر الأغاني والقِيانْ

والسّوسناتُ بهِ التقين

يرعَفن عطرًا إن حَكَين

فإذا تحدّثَت الرّبابةُ في طلاقتِها بَكين

وإذا استراحت

فزَّت الأشواقُ زهوًا في المكانْ

في بلادي الطّلقةُ الأولى

وطلقتُنا الأخيرة

في بلادي الصّهلةُ الأولى

وصهلتُنا الأخيرة

الضّارباتُ على الصّدورِ إذا سُئلنَ

النّاطقاتُ «ابشر» فيُعطَى مَن أجبنَ

الباعثاتُ النورَ من قاعِ السَّريرَة

النّاعساتُ الطّرفِ خلفَ «براقعٍ»

والغازلاتُ الشّعرَ خلفَ «عصابةٍ»

الجاعلاتُ من الجدائلِ مِقصلًا

والصّانعاتُ من السّنابلِ فيلقًا

والكانساتُ اللّيلَ في كفِّ الظّهيرةْ

والقائلونَ: أنا أبوها وابنُها

والكاسرونَ الوهمَ في جُرنِ الهجيرةْ

في بلادي الطّلقةُ الأولى

وطلقتُنا الأخيرةْ

في بلادي الصّهلةُ الأولى

وصهلتُنا الأخيرة...

مكرٌ ناعم

لديكِ مسافةُ نبضٍ

وطفلٍ تعربَشَ لمَّا تهاوى بجيدٍ وعِقد

ولي أنتِ لمَّا يكونُ العِناقُ بلا ضمَّةٍ

ولا قُبلةٍ

ولا رعشةٍ يفرضُ الصّفرُ بيني وبينكِ إيقاعَها

ولي أنتِ في السّطرِ

حينَ تَساقطُ منه الحروفُ على شكلِ عطرٍ ووردْ

وحين تساقطُ منهُ الفواصلُ

تنسى التَّمترُسَ في أرضِها

وحين يهاجرُ سطحَ الورقْ

فيأوي بما فيهِ من حيرةٍ نحو شقّ الجدارِ

وخدشِ الزّجاجِ

ومستودعِ الذّكريات ال تُصفّفُ فيهِ

على شكلِ حلوى

ويأوي بما فيهِ من صبوةٍ نحو قلبٍ

تحيطُ به الموجِعاتُ من القولِ والقائلات

ويلقى سطورًا حملنَ من الوهمِ فيهِ

وما جاءَ حرفٌ ينادي عليهن: أمّي

ولم تتبنَّ اللّواتي حَلُمنَ بحرفٍ رضيعٍ

وهنَّ العواقرُ حرفًا لقيطًا مِن الأرصفة

وأنتِ الأخيرةُ ممّن أجدنَ الهبوطَ على سطحِ قلبي

وأنتِ الخطيرةُ رغم سلاحِ النّعومةِ في مقلتيكِ

وأنت البسيطةُ رغمَ العنادِ المُركَّبِ

ممّا تَناقضَ فيكِ من الجبنِ

والخُطوةِ الماكرةْ

ويكفي بأن تستحيلَ البحارُ مراكبَ ماءٍ

لتأوي إلى طينةِ الرّوحِ..

تغدو ضفافًا على شكلِ أحداقكِ الحائرةْ

أمارسُ منذُ عرفتكِ شيئًا يُقالُ له العشقُ والصّمتُ

والجبنُ منّي

أمارسُ خوفي بألّا أبررَ أسبابَ قبضي عليكِ

وأسبابَ نحتي لألفِ خَيارٍ

سيقضي بألَّا يكونَ الوداعُ خَياري

وألَّا يكونَ الفراقُ على طاولاتِ النّقاشِ

وألّا يكونَ النّزاعُ على ما أراهُ سخيفًا

وجُرمًا لديكِ

فلا تبحثي بين سيلِ الكلامِ الكثيرِ عن الماءِ فيهِ

وعن سمكاتِ المعاني الرّقيقةِ

عن زورقٍ ضاعَ مِن طفلةٍ أفلتتهُ

ولم يكترث لعويلِ النّداءْ

ولا تبحثي بين سيلِ الكلام عن الجالساتِ على ضفتيهِ

فلمَّا أتيتِ ملأنَ الجِرارَ بآخرِ ما قلتهُ وارتحلنَ

تركنَ الكلامَ الأليمَ

الأسيفَ

وجرحي

وما كنتُ أدري بأنّي سأترك لمّا يغادرنَ صوتي

وأتركُ فوق ذراعيكِ صدري وحزني

وأغفو طويلا بعينٍ تحدِّقُ في مقلتيكِ

أنا طفلكِ اللّا يريدُ سواكِ

فلا تُغضِبي طفلَكَ الفوضويَّ

ولا تَغضَبي من يديَّ ال تريدانِ تصفيفَ شعركِ

فوقَ الهواءِ

على كتفيَّ

ولا تبحثي إن بدأنا حوارَ التّنفسِ

والهمسِ

والقُشعريرةِ بين الأصابعِ عنكِ

ولا تبحثي عن يديَّ

ولا تغضَبي مِن فمي إذ يقرمشُ أنفكِ

بعد ارتقاء الشّـهيقِ

ولا تغضبي إن لثمتُ التّكوَّرَ

ثمَّ تتبّعتُ سـيرَ انحناءاتكِ السّـاحرةْ

ولا تخجلي أن تميلي عتابًا

لتوبيخِ عينيْ ال تجرّدُ عنكِ شـقاءَ الثّيابِ

فما زلتُ طفلًا

أحاولُ فهمَ العلاقةِ بينِ اليدينِ وبين الرّداءِ

وبين الأنينِ.. الحنينِ

وبين انهزامِ المدى في اللّقاءِ

أنا طفلُكِ الفوضويُّ ال يحاولُ

رصدَ التّعابيرِ دونَ ارتيابٍ

ورصدَ ابتساماتكِ الدّافئة

فما زلتُ طفلًا

أشاغبُ حينًا

وأهدأ حينًا

وأمكرُ كي يحتفي ناظري بسرٍّ يُدارى بتلك الثّياب...

سجينة

لقد قلتُ لَكْ

وأنتَ ككلِّ الرّجالِ ابتسمتْ

وأردَفْتَ تضحكُ في كلِّ حالٍ

وفي كلِّ حينْ

وتقسو لأذوي وقد غبتَ عنّي

بقلبٍ حزينٍ

كوجهي الحزينْ

وكم قلتَ عنّي: بأنّي سخيفةْ!

وقد قلتُ لكْ

وكرّرتُ لكْ

وبرّرتُ أنّ الهوى ثائرٌ

ولا حبَّ في القيدِ

هذا تجنّي... وأقسمتَ أنّكَ

قلتَ الحقيقةْ

وأنّي النّوارسُ

أنّي السّنابلُ

أنّي القصيدة

وأوهمتَ قلبي الصّغيرَ الكبيرْ

بأنّكَ حقًّا كما قلتَ عاشقْ

وأنّي الطّليقةْ

وقد مرَّ عامٌ.... لتبقى طليقًا

ومثلي كمثْلِ النّساءِ جميعًا

بقيتُ أحبّكَ... لكنْ سجينةْ...

الوشَاح

فيكَ أبتدئُ الصّباحَ

وفيكَ أختتمُ الصّباحْ

وأدركُ أنّني أنثى

حَباها اللّهُ في رجلٍ

يجيءُ هديّةً للعمرْ

يجيءُ لمرّةٍ في العمرِ

يأمرُ في مشاعرِنا

وينهى في ممالِكنا

ونعشقُه... وإن أخطأْ

وتطلبُ عينُه النّعسى

إذا ما جاءَ يُغضبنا بأن نهدأْ

ولا تقوى بنا الأعصابُ بينَ حديثهِ الدّافي

بأن نسترجعَ الأعصابْ

ولا تقوى لنا عينٌ

إذا نظَرَتُه مُبتسمًا

بأن تَسترجعَ الأهدابْ

فكم مَحظوظةٌ أنتِ؟

وكم مِن مرّةٍ حِيكت معالمُها على شفتيْ؟

فيضحكُ إذ أغازلُهُ

ولا يدري بأنّي من ضَواحِكه

بأنّي شمعدانٌ ذابْ

فكم من خُصْلَةٍ رقصَتْ على كفّيهِ مُنهكةً؟

وكم مِن نبضةٍ سكَنَت على زِنديهِ مُرهقةً؟

وكم مِن نجمةٍ سقطَت لتسكنَ قربَ منزِلنا؟

وكم من زهرةٍ أرخَت مَسامعَها لدى الأبوابْ؟

وكنتُ أراقبُ الأمواجَ كيف تدورُ في ألمٍ

وكيف رياحُ أيّامي تُزيحُ الأمسَ والحاضرْ

فأنتَ غريقُ أمواجي

وأضحكُ حين تنثرُها

فقبلَكَ لم يكن بحري... سوى كوبٍ من الماءِ

وقبلَكَ لم يكن شطّي... سوى صحراءِ أحزاني

فجئتَ كزهر نيسانٍ

لتغدو زهر أزماني

وتحملَ عالمَ الفوضى

فقبلَكَ عالمي فوضى

ترتّبُه على مهلٍ

توضّبُه على شكلٍ

بهندسةٍ... بزركشةٍ

وتمحو أسودَ الألوانِ من قاموسِ ألواني

ومن عينيكَ أهربُ ثمَّ آتي

ومن عينيكَ أسرقُ مفرداتي

وأكتبُ عنكَ

عن رجلٍ غريبٍ

رمى دنياه مسكونًا بذاتي

وأدركُ أنّني أنثى

سكرتُ بعينِكَ اليمنى

غرقتُ بعينكَ اليُسرى

ومن شفتيكَ أشربُ قهوتي الحُلوة

ومن خدّيكَ أقضِمُ قطعةَ الحلوى

وريقُك خمرُ أعنابي

فمهما ثُرتُ في غضبي

أعودُ إليكَ وادعةً

أعودُ لرفعِ راياتي

ومهما قلتُ لن أرجعْ... مناكفَةً لأشواقي

دلالاً كانَ أم غضبًا

أراني عدتُ أدراجي

لألقى صوتَكَ الدّافي شجيًّا في مناداتي

فكيف ذهبتُ؟

عاقبْنِي

فيضحكُ إذ أعاتبُهُ

ولا يدري بأنّي من ضواحِكهِ

بأنّي شمعدانٌ ذابْ

أمامَكَ لا مواجهةٌ

أمامَكَ تسقطُ الأحقادْ

وتُكسرُ نعرةُ الأسيادْ

أعودُ لخيمةِ الأعرابِ.. امرأةً بلا ألقابْ

أعودُ كتابعٍ يرضى بأن يُقتادَ للأصفادْ

وأرضى أن تعنّفَني لأسبابٍ

وتُرضيني بلا أسبابْ

فسجنُك أيُّها الشّرقيُّ منغلقٌ بلا أبوابْ

لذا استنكرتُ ما لهجَت به عيناي مِن تَرحاب

فيكَ أبتدئُ الصّباحَ

وفيكَ أختتمُ الصّباحْ

ونقشتُ بسمتكَ الغريبةَ فوقَ شمسي

فوقَ ظلّي

فوقَ زقزقةِ الحروفِ تميلُ مع ميلِ الرّياحْ

ونقشتُها فوقَ الورودِ

على طِلاءِ أظافري

وغزلتُهُا

رَغمَ التّواضعِ في نسيجي

فوقَ أطرافِ الوشاحْ

ونقشتُ حبّكَ في وريدي

زدني من العشقِ الجميلِ

وقل لأرضي إن فَتَرتُ: الآن زيدي

هذا نشيدي

من ردّدَ« الكوبليه» خلفَ غنائِنا؟

وترُ الكمانْ؟!

من كان يعزفُ لحنَنا؟!

ستقولُ: نبضي

لا حبيبي

إنّه قمرُ الزّمانْ

من شاهدَ التّانجو وكيف أحطتَني

وملكتَ خصري حينها؟

الكلُّ شاهدَ ما جرى

الكلُّ كانْ

ومضى الجميعُ ليرقصوا

وتبخَّروا

وبقيتَ وحدَكَ في المكانْ

حتّى إذا حلَّ المساءُ

سرقتَني حتّى الصّباحْ

وملكتَنِي من أخمصِ القدمين حتّى مَفرِقي

ونثرتَ أقمارَ السّماءِ بمنزلي

وسكبتَ أنهارَ الجبالِ بأبحُري

حتّى بحلمي... أنتَ مَن يرتادُني

أنتَ مَن يُهدي لحزني في مناكَفتي ارتياحْ

أنتَ مَن يُبري جروحي

كيف لا... دمتَ الحبيبَ بلا جراحْ؟!

فكم محظوظةٌ أنتِ؟

وكم مِن مرّةٍ حِيكَت معالمُها على شفتي

وأدركُ أنّني أنثى

أرادت طيَّ ماضيها

وأن تتكوَّرَ الدّنيا

وأن تتمحورَ الدّنيا على كفّيكَ قانعةً

بأنَّ يديكَ عالمُها

جزيرتُها

محارتُها

وشرفتُها

ويكفي إن تباعدنا بأجسادٍ لها قدرٌ

بأن تتوحّدَ الأرواحُ

أن تتوحّدَ الأرواح...

حسناء

لا زلتِ أجملَ مَن عرَفتْ

لا زالَ وجهُك من يضيءُ العتمةَ ال تغتالُ فجرَ الأمنيات

تتبعثرُ الدّنيا أمامي

كلُّ مَن فيها

ومَن يمضي إليها

كلُّ مَن عاهدتُهم

لكنّهم خانوا عهودي

كلُّ مَن بايعتُهم

أملًا بخاتمةِ الوعودِ

يتبعثرونَ

ويلهثونَ وراءَ عجزِ المفرداتْ

تتقزّمُ الكلماتُ

تنشقُّ الضّلوعُ من الضّلوعِ

ويسقطُ المعنى الجميلُ من الشّفاهِ

وأنتِ تمتزجينَ بي

وتحلّقينَ على ارتفاعِ الحرفِ بي

تتغيّرُ النّظراتُ إلّا منكِ أنتِ

تتغيّرُ اللّحظاتُ إلّا ما ابتدأتِ بها

وما آلت إليكِ

فكنتِ للحيراتِ مأواها

ولي كنتِ السَّـكَنْ

تتغيرُ اللّحظاتُ إلّا لحظةً جمعَتكِ بي

وهناكَ يصبحُ عالمي ما تمنحينَ من الدّقائقِ والوعودْ

وهناك أصبحُ ما أردتِ بأن أكونْ

والفكرُ يرحلُ حينما

نرضى بما فرضَ الجنونْ

لا زلتِ أجملَ مَن عرَفت

لا زلتِ رغم فراقِنا المرفوضِ منّا

مثلما كنتِ أمامي

أمامي بسمرتكِ ال ترفضينَ لوصفي لها

أمامي بنبرتكِ ال تعرفينَ انتقادي لها

ولا زلتِ _من بينِ كلِّ اللّواتي التصقنَ بقلبي

لأجلي

لأجل القصيدةِ والمفرداتِ

وما قد يسيلُ من الحبرِ عشقًا

ووجدًا_

بأرضٍ تنادي بوجهكِ أنتِ

بروحكِ أنتِ

بقلبكِ أنتِ

بحبّكِ أنتِ... أمامي

طويلٌ كصبركِ _حين انتظرتِ غرامي_ مسائي الطّويلْ

وأقصرُ منّا الحديثُ

ووقتُ الحديثِ إذا ما التقينا

ورحنا نعاتبُ ما كانَ منَّا

وأقصرُ منَّا الحياةُ ال تفرُّ سريعًا

فكيف تركتِ المسافةَ تجري؟

وكيف تركتِ الدّقائقَ تجري؟

وكيف تركتِ القصيدةَ تأكلُ منّي انتظاري ووقتي؟

وأنتِ كمثلي تخافينَ حرَّ الفِراقِ

وظلَّ الرّحيل؟!!

فهل تذكرينَ متى سرت نحوي

ورحتِ تعيدينَ ذاك الكلامَ: أنا عاشقة؟

أنا أذكرُ اللّحظتينِ اللّتينِ التقينا خيالًا

وحقًّا بها

ولا زلتُ أذكرُ شكلَ الحديثِ

ونوعَ الحديثِ

ولا زلتُ أذكرُ لونَ الزّهورِ ال بعثتُ إليكِ بها

وأبياتَ شعري

قصاصاتِ فكري

وأذكرُ أيضًا... وكيف سأنسى؟

بأنّي هربتُ وعدتُ إليكِ

وأنّي ركضتُ بعيدًا إليكِ؟

وأذكرُ أنّي شرحتُ عذابي وخوفي

وماذا طلبتُ

وماذا فعلتُ

وماذا أخذتُ

وماذا تركتُ

وأنتِ كمثلي

تخافينَ مثلي... حديثَ الفراقِ

وصمتَ الرّحيلْ

فكيفَ ابتعدتِ طوالَ النّهارِ؟

وكيف تركتِ المسافةَ تجري ولم توقفيها؟

حسناءُ هاتي نبضةً أحيا بها

إنّي أموتُ من المسافاتِ اليتيمةْ

قلبي الوحيدُ كنخلةٍ

تخشى من الأرض الّتي تحيا بها

تخشى الطّيورَ القادماتْ

تخشى الرّياحَ الآتياتْ

وتخافُ زخَّاتِ المطرْ

فضعيهِ رغمَ العصفِ فيهِ

ورغمَ مَن قد يزدريهِ... براحتيكِ

وهدهديهِ... لكي ينامْ

غنِّي له

قصِّي عليهِ حكايةً هو كان فيها

إنّه يحتاجُ دورًا في الحكايا يا صديقة

إنّه يحتاجُ قلبًا يحتويهِ

ولا يُهمِّشُ صهلةَ الأحزانِ فيما يعتريه

حسناءُ هذا اللّيلُ يتعبُني

وصحرائي

وبردُ الأمسِ

وحدانيّةُ النّبضاتِ

فاحتملي جنوني

واتركي صوتي عند مفترقِ الجنونِ..

جميعَ أشكالِ النّداءْ

فسواكِ لا أحدٌ يجيبُ

سواكِ لا أحدٌ سيأتي مِن بعيدْ

حسناءُ مَن كانوا هنا

لا يذكرونَ ملامحي

وسواكِ دونَ ملامحي مَن راح ينقُشُني

بذاكرةِ الورود...

النّداءُ التّائه

حضَرَ الطّبيبُ

وقال يُمسكُ مِعصَمي:

أهنا عذابُكِ أم هُنا؟

أهنا غرامكِ أم هُنا؟

وأذبتُ نارَكَ في دمي؟

وذكرتُ أحجيةَ الوداعْ

وذكرتُ صوتَكَ باردًا

قد جاءني بعدَ الضّياعْ

وهوى فؤادي من جبالِ العِشقِ

مِن قِممِ الهوى

وذوى بقاعْ

مَن كانَ يطربُه كلامي

ذاتَ يومٍ ملَّني

مَن كان يَحمي الكُحلَ في عينِي

ويرجُفُ خائفًا

ناديتُه

فمضى ندائي للضّياعْ

لكنّهُ قدرٌ جَذبتُ حِبالَه

حَبلُ التّمنّي قد يدومُ لبرهةٍ

لكنّهُ حتمًا يؤولُ إلى انقطاعْ

هذي أنا

بملامِحي وملائِحي

وبعطرِكَ المحبوبِ يعبَقُ بالرّواقْ

بقصائدي وحرائقي

وبراءةِ الشّفتينِ إن طالَ العناقْ

لا أنتَ مَن سيمرُّ مثلَ حكايةٍ

أو قصّةٍ في البالِ

يختمُها الفِراقْ

فالحبُّ يمرضُ كالزّهورِ وكالفَراشِ

كما البحارِ

ومثلَ بيتِ الشّعرِ قد لمسَ افتراقْ

والحبُّ رغمَ الماءِ

والخضراءِ

والوجهِ المَليحِ إذا تمادى في الضّلالةِ

قد يقودُ إلى اختناقٍ

ثمَّ يتبعُهُ احتراقْ

هذا زمانُكَ في دمي

فلمَ التّعجرفُ والحديثُ عن الكرامةِ سيّدي؟

أتعبتَني

وأنا أراكَ إذا فتحتُ دفاتري

تطفو على بحرِ القصيدِ

مُحرّكًا موجَ القصيدْ

وأراك لحنًا قد أتى

ليُقيمَ وزني من جديدْ

فلك الخَيار بتركِ روحي

بينَ أنيابِ الفراقِ

وبين مِقصلةِ الوعيدْ

أمَّا وقد حضرَ الطّبيبُ

وأنت دائي والطّبيبْ

سأقولُ في شكواي: قلبي

دون نبضكَ في حريقْ

سأقول: قد رحلَ الحبيبُ

وبعدها

رحلَ الجميعُ وهاجروا

لأنادمَ اللّيلَ الوحيدْ

هذا زمانُكَ سيّدي

وأنا على عِلَلِ الفِراقِ طريحةٌ

فاصنع بقلبي ما تريدْ...

هُنَاك

في زمنِ الفوضى والحبْ

يجمعُ ذاكَ الرّجلُ ترابَهْ... ليرمّمَ نفسَهْ

يجهلُ ما ضيَّعهُ الفكرُ

فلا يكتبُ واقعهُ أبدًا

يرسُمُ منطقَهُ الأعوجَ في خطٍّ أفُقيّ

تخطيطُ القلبِ على آلةِ تخطيطِ القلبِ كذا أفُقيّ

دائرةُ الأصعبِ فالأصعبْ

دائرةُ الأعذَبِ فالأعذبْ

يرسمُها في خطٍّ أفقيّ

في زمنِ الفوضى والحبْ

لا يتحوّل منَّا إلّا الدّاخلُ منَّا

والمفقودُ من الأنفاسِ لخطٍّ أفقيّ

جئتَ تفتّشُ عن ذاكرتي في عينيَّ النّاسيتينْ

لا أذكرُ شيئًا

لا أذكرُ ما استودعتُ قديمًا

ما استوردتُ

وما كدَّستُ

وما أتلفتُ مِنَ الأصواتِ

مِن الأحداقِ

مِن الأحداثِ

مِن المرفوضِ أو المسموحْ

ومَن عانقتُ

ومَن فارقتُ

ومَن عمَّقَ ألمَ الأضغاثِ بأبسطِ ما لهجتهُ الرّوحْ

لا أذكرُ أين يعلّقُ قلبي حين يعلّقُ صورةَ من عشقتهُ

وعاشت فيه

حينَ يُمسمِرُ صورةَ مَن جاءتهُ

وقد يَبُسَ الإحساسُ لديهْ

مَن منحتهُ أصابعَها كقيودِ الرّحمةِ في زِنديهْ!

لا أذكرُ آخرَ مَن مرّتْ

كي أذكرَ _يا سيّدتي_ أوَّلَهنْ

لا أذكرُ هذا العامَ

وكيف لعامٍ قد أنساهُ بأن يذكرَني؟

يُقرضُني نفسي

يُجبرُني أن أبتلعَ مكاني كي أعرفَ موطئَ أقدامي

أن يتبعَ عمري زمنًا من أزمنةٍ أخرى

والعطرُ ملامحَهُ السّمراءْ

والأغربُ حين يعودُ الوقتُ بنا

والعمرُ بنا

واللّحظةُ أيضًا حين تعودُ بنا

فأعودُ ولا أذكرُ مَن أنتِ!

فقد مرَّت دنياي أمامي

لألاحقَ أشقى أيّامي

وهباءَ العاطفةِ الأولى

عيناك السّائلةُ: أأنت؟!

لا أذكرُ شيئًا سيّدتي

لا أذكرُ إلّا أينَ أقيمُ

وما فضَّلتُ مِن الألوانِ

أو الأزهارِ

ومقدارَ السّكّرِ في الشّايِ

وموسيقايَ

وأسبابَ تساقطِ شعري

لا أذكرُ وجنًا سارَ على شفتيَّ جريئًا

مرَّرَ مِن تحتِ لساني شبقَ القبلةِ

واغتالَ بملمسهِ وجعي

يا سيّدتي

إنّي ناقشتكُ تحتَ الضّغطِ

وتحتَ التّحقيق القسريّ

إنّي ناقشتكُ تحتَ التّعبِ السّاكنِ في تبغي

ناقشتُكِ لا أذكرُ شيئًا عن تاريخي في ترشيدِ الحزنِ

وتقنيبِ الأصواتِ بصمتي

لا أذكر شيئًا مِن فلسفتي

وحديثِ الكتبِ المنقولةِ

لا أذكرُ آخرَ مَن مرَّت

كي أذكرَ _ يا سيّدتي_أوَّلَهن

فالعالمُ قلبٌ قد يسكنُهُ الحبُّ

وقد يسكنُه الحقدُ

وقد يسكنهُ النّسيانُ

وذاكرةٌ لا تذكرُ شيئًا

والحاضرُ أكبرُ من جسدينِ افترقا

أبعدُ مِن أن تصِلَ إليهِ

فلا تمشِ في اللّيلِ إليهِ

في الجهةِ الأخرى

شعبٌ لا يُشبهُ مَن تعرفهُم

منطقةٌ يسكنُ فيها شعبٌ سمكيُّ الذّاكرةِ كأنتْ

أجناسٌ لا تأكلُ لحمَ البشرِ

ولا تَهدِمُ أعشاشَ الطّيرِ

ولا تقطعُ أعناقَ النّصِ

ولا تبتُرُ أغصانَ الوردِ لزرعِ الشّوك

في الجهةِ الأخرى منكَ تمامًا... جهةٌ أخرى

فالزَمْ موقعَكَ

فلا حاجةَ للشعرِ هناك

ولا حاجةَ في الجهةِ الأخرى للشعراءْ

في زمنِ الفوضى والحبْ

لا حبَّ هناك

الأنثى تجهلُ كيف تكونُ الأنثى وطنًا

النّهدُ يخافُ بأن يبدو ثديًا يفترشُ شفاهَ حضارتِنا

يخشى الضّعفاءَ

وتخشى سطوتُه الضّعفاءْ

في هذا السّيركِ اللّيليّ

وهذا اللّيلِ نخافُ علينا

نخشانا فنكرّرُ تصنيعَ الأبناءْ

نستنسخُ فوق سريرِ الجنسِ شبيهًا

لا يشبهُ أيًّا منَّا

في الفجرِ نعلِّبُهُ بالجبنِ

نقولبُهُ بقَوالبِ أنصافِ الرّأيِ

وأنصافِ القولِ

وأنصافِ النّبضِ

وذاكرةٍ يسَّاقطُ منها ما يلقاهْ

فالعالمُ قلبٌ قد يسكنهُ الحبُّ

وقد يسكنُهُ الحقدُ

وقد يسكنُهُ الموتُ على شكلِ حياةْ

في زمنِ الفوضى والحبْ

نفقدُنا جدًّا

نفقدُ معنانا

والمعنى يفقدُ معناه...

لأنّه العِراق...

لأنّهُ السّفينةُ ال تشكَّلَت مِن نخلهِ الطّويلِ

للخليقةْ

لأنّه الطّريقُ حين ضاعَت الدّروبُ للمدينةِ العتيقةْ

لأنّه الوحيدُ حين قلَّمَت

ثقافةُ الرّكوعِ غصنَ وردِنا

وشوكِنا

قد سيَّجَ الحديقةْ

لأنّه الوحيدُ حين ألَّفَت حضارةُ القطيعِ

بين ذئبةِ الكَيانِ والقَطيعِ

مزَّقَ الوثيقةْ

لأنّه الوحيدُ حين نادمَ الغزاةُ مَن تدجّنوا

قد نادمَ الحقيقةْ

تسلّلَتْ حبالُهم أمامَهُ بمكرِها

تمايلَتْ عصيّهُم أمامَهُ بعهرِها

تدافعوا في الزّينةِ ال تستهدفُ الحروبُ فيهِ أنبياءها

ليلَقَفَ الشّقيقُ دونَ سحرهِم شقيقَه

تآمروا ليخلعَ العراقُ من ثيابهِ عباءةَ الفُراتْ

ليرتدي ملابسَ «الكوبوي» في مُسلسلِ السّقوطِ

والقنوطِ

والسّباتْ

تآمروا كي يعجنوا عظامَ كلِّ كاهنٍ

وعابدٍ

وناسكٍ

مِن لحمِ «توما» _سادتي_ فطيرةَ الدّماءْ

كي ينحتوا ال يغوثَ مِن صخورهِ

المناةَ مِن تمورهِ

كي يصنعوا من رملِه العصيّ ألفَ لاتْ

تآمروا ليستحيلَ قطعةً في متجرِ النّفائسِ القديمةْ

ومعبدًا تباعُ في طقوسهِ تمائمُ الزّواجِ

والطّلاقِ

والرّذيلةْ

وطابعًا مشوّهًا لم يَشهدِ الجريمةْ

ومَعلَمًا أمامَ بيتِنا الكبيرِ في الخريطةْ

تآمروا

وطالما تآمروا لذبحهِ

فعادت الصّلاةُ كي تبعثرَ النّقاطَ

والحدودَ في الخريطةْ

وماتت العلوجُ في مكانِها الصّحيحِ..

في الحظيرة

وعاشت المدائنُ الصّغيرةُ الكبيرةْ

وعاش رَغمَ جرحهِ

بجرحهِ العراقْ

لأنّه العراقْ

لأنّه العراقُ... لا تناقِشي مَن يعشقُ العراقْ

فدِجْلةٌ قصيدة

ونينوى قصيدة

وشارعُ الرّشيدِ حين يذرِفُ التّرابَ من قصورِه قصيدةْ

والفاوُ حينَ يلثِمُ المراكبَ البعيدةْ

والأرضُ حين تَمْزُجُ الدّماءَ بالشّهيدِ

والدّماءَ بالشّهيدةْ

في لوحةِ الخلودِ يا صديقتي قصيدةْ

بغدادُ حينَ أنجَبَتْ

لم تنجبِ الورودَ دونَ شوكِها

لم تنجبِ البحورَ دون مدّها

لم تنجبِ القِفارَ دون صبرِها

لم تنجبِ الرّجَالَ دون أن تُقلّدَ الرّجَالَ واحدًا..

فواحدًا..في عنقِهِ وعيدَه

ووحدَها مَن سَلّحَت عيونَ ماجداتِها بنظرةٍ عنيدةٍ

تماشيًا مع طينةٍ عنيدةْ

بغدادُ إن تكلَّمتْ

ترصّعَ الكلامُ بالحضارةْ

وعمّدَ الزّمانُ وجهَهَا الطّهورَ بالطّهارةْ

فراقبي دروبَها

وراقبي الطّيورَ

والحقولَ

والوجوهَ

والحجارةْ

قد يحمل الزّمانُ صوتَها الرّقيقَ للخليلِ يا صديقتي

كي يبدأَ الزّمانُ من خليلِها حوارَهْ

لأنّه العراق...

لأنّه العراقُ لا تسائِلي النّخيلَ عن مدائنِ النّخيلْ

مَن مهَّد الطّريقَ للأمامِ رغمِ جُبنِنا

للخلفِ لا يسيرْ

مَن شتَّتَ اليهودَ يومَ سبيهِم

وحالَ دون عجلِهم

للخلفِ لا يسير

مَن حرَّض الخيامَ أن تصفّقَ الرّجوعَ من عظامِهِ

لقدسِها

لا يعرفُ الرّحيلْ

مَن علَّمَ الخيولَ أن تُغِيرَ في خطابهِ

لا يقتلُ الصّهيلْ

سليهِ يا صديقتي

فقد يجيبُ حينها الرّشيدُ عن سؤالِكِ

الكلدانُ عن سؤالكِ

وألفُ قائدٍ أجارَ مَن يُجيرْ

وقد يجيبُ حينها زريابُ في معزوفةٍ

عن ذلك السّؤالِ والخليلْ

والرّيحُ قد تُجيبكِ

في مطلعِ السّيّابِ قد تجيبكِ

إذ تلهثُ الرّياحُ مِن هجيرةِ الخليجِ في الأصيلْ

سليهِ يا صديقتي

عن كلِّ ضَادٍ قبَّلَت قصائدَ الوصالِ والفراقْ

قصائدَ الوداعِ والعناقْ

سليهِ قد يجيبُكِ بجرحهِ العراقْ

لأنّهُ العراق...

المنفَى

فخورٌ بأوجاعي المريرةِ

بالجراحِ

وبالنّدوبِ المُستدَامةْ

وأدِينُ للخِذلان أنَّ لهُ يدًا

قد علّمتني أن أجمّدَ صرختي

وأجفّفَ الدّهَشاتِ فوقَ ملامحي

ألّا أعاتبَ

أو أمارسَ _في تمارينِ العذاباتِ_ المَلامَة

كم كنتُ ممتنًّا لأنَّ جوارحي

قبِلَتْ من الشّمسِ الغروبَ

وبعدَ ذاكَ أفولَها

ومِن النّهارِ تقبّلتْ دومًا ظلامَه

في المهدِ أنبأها الطّبيبُ: دمِاؤُه مُغترّةٌ

وصراخُه فيما أرى مُتموسِقٌ

هو حالتانِ مِن العِراكِ يقضُّ عُمقهُما سلامَه

وأراهُ يكتشفُ الجهاتِ

وقد أضاعتُه الجهاتُ

كمَا أضاعت مِن تحفّزِهِ أمامَه

سيعيشُ؟

كلّا، ربّما

فالشّعرُ يولدُ ميّتًا

قزمًا يبارزُ منذُ نشأتِه غمامَه

جعلَتْ بناتُ الحيّ

يسكبنَ الرّثاءَ بصوتهنَّ

ويحتفينَ بنكتةٍ بلهاءَ يُطلقُها

فعزَّزنَ انقسامَه

والآن يهجرُ حيَّه

عمّانَه

تلك الحواري حينَ تنغمسُ السّماءُ بأرضِها

فيَخالُ أحجارَ الأزقّةِ والحصى أجرامَه

يُنفى كما تُنفى الطّيورُ المتعباتُ من الحذر

يُنفى من الألمِ القريبِ إلى البعيدِ كأنّما

حمَلت مسافتُه المشانقَ.. والمدى إعدامَه

أينَ اللّواتي يرتدينَ قصيدتي؟

أينَ الفضولُ

وخلفَ كلِّ ستارةٍ

ورّى النّوارسَ إن نقرَنَ القمحَ في شِعري

وحذّرَني حَمامَه؟!

أنا كلُّ حربٍ خضتُها لم أكترث

إن عدتُ منها

أو جمعتُ حطامَها في داخلي

أو داخلي منها استردَّ حطامَه

لكنّه المنفى الأخيرُ وعالَمٌ

طرحَ السّياطَ ال كان يحملُها

وشرّعَ لي حسامَه

إن كنتُ مهزومًا فدع لي دمعتي

إنّي نسيتُ طريقتي في الحبِّ

أنستني المنافي كيف للإنسانِ أن يُبديْ

وأن يُخفيْ غرامَه

بل كيفَ ينتفضُ الجريحُ مناكفًا

ويعودُ لا يخشى لفافةَ تبغهِ

أو ليسَ يحملُ في جوانحِه انهزامَه!

إنّ المنافي قد أكلنَ صخورَه

وأكلنَ من جبلي وقمَّته ركامَه

هذا لأنّي بعد كلِّ هزائمي

آثرتُ أن أبقى أنا

فرأيتُني كفنًا

ترابًا غافيًا

لم يحتملْ في الموجعاتِ عظامَه

سيعيشُ؟

كلّا، ربّما

فالشّعرُ يولدُ ميّتًا

ويُميتُ ألفَ حقيقةٍ

كيلا يُميتَ بوهمِه أقلامَه

سيعيشُ حتّى الأربعينَ وإنّما

سيكونُ كالمنفى وحيدًا

واحدًا

يمحوُ ويغرِسُ في العراءِ خيامَه...

قارورةُ عِطر

مِنْ لحظِها صَبَغت

مِكحالَ مُكتَحِلِ

واستنزَلَ البدرُ عَتمَ اللّيلِ

في المُقلِ

قيثارتانِ

حياءُ الجفنِ سلَّهُمَا

طُهرًا

يُموسِقهُ في جَوقةِ الخَجلِ

تُرقَى

وإنْ سَبَت السّبعونَ نورسَها

أو طاردَ الشّيبُ

ما أبقاهُ مِن حَجَلِ

هذي التّجاعيدُ

كفُّ العمرِ تنقشُها

ويَنحتُ الدّمعُ

مَلوى وجنِها الخضِلِ

من «رملةٍ» طينةُ الأقدامِ لاجئةٌ

صوبَ الرّجوعِ

وإنْ قِيدَت لمرتَحَلِ

لا سكَّنَ اللّه طَرْفَ النّائحاتِ على

أطلالِهن

إذا ما عدنَ للطللِ

دربانِ لا غيرَ

في الدّنيا وعاقبةٌ

ومَنْ تتبَّعَ خطوًا

للهُدى يصِلِ

والنّفسُ إنْ شَـرَدَت

فاربطْ نوازعَها

ربطَ اثنتينِ معًا

من شَـاردِ الإبِلِ

آبت إليكَ من الإبحارِ بوصلةٌ

تنجو بإبرتِها

مِن لُجّةِ الزّللِ

مكرُ الرّياحِ

وموجُ الذّنبِ يعطبُها

ونحوَ وجهِكَ يا ألله لم تزَلِ

أَمْضي إلى «التّينِ والزّيتونِ» مُقتفيًا

إثرَ النّبوَّةِ

في إلهامِ مُبتَهِلِ

وألمحُ الفجرَ

زخَّاتٍ يزيحُ بها

ما خلَّفتهُ

يدُ الآثامِ مِن وَحَلِ

والطّيُّ طيُّ نبيٍّ

مِن جوامِعِهِ

والنّشرُ نشرُ هديرِ الآيِ والمُثُلِ

يا صوتَ «أحمدَ»

إذ داوى ببُحتهِ

روحًا تفرُّ من التّأنيبِ

للعذَلِ

تُدنِي الدّروبَ مِن المحرابِ نبرتُه

ويَخشعُ الصّخرُ

مِن ترتيلهِ الجَزلِ

مِن قبلِ بعثكَ

كان الشّعرُ يابسةً

أبياتُه الصّفرُ فاستسقاكَ بالغزلِ

إن كانَ للنورِ بيتٌ

والدّجى وطنٌ

فوجهُك البيتُ

والأوطانُ في الخُصلِ

كلُّ القلوبِ بها داءٌ

وإن عظُمَت

إلّا فؤادَكَ

مخلوقٌ بلا عِلَلِ

والسَّمْحُ ينزعُ ثوبَ الحِلمِ في غضبٍ

إلّاكَ تُسبِلهُ في الرّفقِ والعَجلِ

سادَ الرّجالُ رجالًا

فارتقوا شرفًا

وسُدتَ خيرَ رجالِ الأرضِ

والرّسُلِ

إن خاصموكَ

ففصلُ القولِ في سورٍ

أو جادلوكَ

فخذْ مِن شرعهِ وقُلِ

هل نبّأتكَ رمالُ الأرضِ عَن فرسٍ

غاصت قوائمُها في غَمرةِ الحيَلِ؟

عن وعدِ مَن مُنحِتْ

مِن فيهِ إسورةٌ

لمَّا تخضَّبَت البيداءُ بالأملِ؟

هل نبَّأتك

وقدَّ برَّ الزّمانُ بهِ

أو حدَّثتكَ عن التّيجانِ والحُلَلِ؟

تحنو العباءةُ إذ مُدَّت لزائرةٍ

لولا المشيبُ جرَت

للباسمِ الخَجِلِ

فاستنطقَ القلبُ مِن قارورةٍ سَكَبت

ذكرى «خديجةَ» عِطرًا

حينَ لم تَسِلِ

قد ردَّكَ الدّمعُ لمَّا رُحتَ تذكرهُ

للوحي

للبعثِ

للتّنزيلِ

للأَجَلِ

للمفرداتِ

وما في الكونِ من لغةٍ

مِن نبْوَةٍ

وأنينِ البوحِ

والجُمَلِ

حتى وجدتَ «لقد ماتَ الرّسولُ» أتت

مِن أوجعِ القولِ والإخبارِ

والجَلَلِ

واللّهُ باقٍ وخَلقُ النّاسِ في كَبَدٍ

إنْ تحمَدِ الضّرَّ مِن سرَّائهِ تنَلِ...

الرِّيشة

حضورًا بدا عند الوداعِ غيابُهُ

إذن ماتَ! كلّا، كانَ ذاكَ سرابُهُ

لدى الموتِ واصطفَّت قبورٌ كثيرةٌ

لتلقاهُ لمَّا حانَ منها اقترابُهُ

ترجَّلت الأبعادُ عن ظهرِ مَلمحٍ

وأرخى ستارَ اللّيلِ قهرًا شِهابُهُ

وما زلتَ، ما زالت تخالُكَ عازفًا

فهل تقتلُ النّايَ الرّقيقَ عِذابُهُ؟

أغبتَ لأنَّا لم نكن مثلَ حنظلٍ

وطفلٍ لنخلاتِ المسيحِ انتسابُهُ؟

على الحائطِ المهدومِ يرسمُ شاهدًا

وقبرًا بدا حبرَ الدّواةِ ترابُهُ

فوشَّى بعظمٍ من دماهُ سلاسلًا

ووشّاهُ ما وشَّاهُ إلّا اختضابُهُ

وللقيدِ حولَ المعصمينِ وحوشُـهُ

وللقيدِ إن ثارَ الخيالُ ذئابُهُ

ولكنَّ مَن ردَّ الضّباعَ تقزَّمَتْ

بعينيهِ خُوذاتٌ غَزتهُ وغابُهُ

إذا كُسّرت أضلاعهُ مِن هراوةٍ

تصدَّى بمقلاعِ الحجارةِ نابُهُ

فلم يثنهِ عن عزمهِ حبُّ كاعبٍ

ولم تَبكِهِ عند الفراقِ كعابُهُ

تأذّت به الأحزانُ جرَّاء صبرها

وأعفاهُ منِ فيضِ الدّموعِ اكتئابُهُ

فيمضي بلا ظلٍّ ليقطفَ موجةً

ويُقصيهِ عن موجٍ أتاهُ عبُابُه

على أيّ بحرٍ قد يُغيرُ مسائلًا

وعكَّا ببحرٍ لا يؤوبُ إيابُهُ؟

أيُعفى مِنَ الجرحِ الأنينُ وجرحُنا

على منبرِ الكفينِ جَزْلٌ خطابُهُ؟

فمن أيِّ ذنبٍ قد تخافُ عقابَها

ذنوبٌ وفيها حين يشقى ثوابُهُ!

ومِن أين يستلُّ الكَيانُ حقيقةً

إذا كان مكرًا وافتراءً جِرابُهُ؟

ومِن أين؟ تدري أنَّ كأسًا مليئةً

بوهمٍ سيسقي الواهمينَ يبابُهُ

حضورًا ولا يدري بوجهةِ حنظلٍ

وفي أيِّ أرضٍ قد تكونُ ركابُهُ؟

ومِن أيّ حربٍ قد يجيءُ مُهاجرًا

ومِن أيّ صوبٍ قد يصيحُ غرابُهُ؟

فخنساؤهُ يدمي اللّجوءُ رضيعَها

وتُدمَى ولم تعتدْ عليهِ ربابُهُ

ولا طفلُها، لا الياسمينُ وقد غدتْ

تَضيقُ بأقدامِ الهروبِ شعابُهُ

فلمَّا تلاقى ذا بذاكَ عرفتُهم

ولا يعرفُ التَّرحالَ إلّا صحابُهُ

فهذا المُصفَّى مِن دماءِ عشيرةٍ

وهذا المُسجَّى مِن عدوٍّ يهابُهُ

وذاكَ المنافي قد أكلنَ سنينَهُ

وهُدَّت لتشْييدِ الكَنيسِ قبابُهُ

تشابهتِ القمصانُ حتّى ثقوبُها

وشكلُ النّعالِ الحافياتِ وآبُهُ

ليمضي بأسماءِ المدائنِ كلِّها

ويمضي بمفتاحِ الإنابةِ بابُهُ

فمَن أيّ أرضٍ قد يسيرُ كعائدٍ

وأوَّلُ مَن وارى الرّجوعَ ذهابُهُ؟

ومن أينَ أبوابُ الخيامِ؛ جهاتهُا

وكلُّ مصابِ الرّاحلين مصابُهُ؟

وآخرُ مَن يجني عليكَ هو الّذي

سيغدو بكاءً في العراءِ عتابُهُ

لذا تبصرُ الألوانُ وجهَ حبيبها

وإن كانَ معصوبَ الجهاتِ ضبابُهُ

تنادي ومَن نادتهُ يسألُ سائلًا

وألفُ جوابٍ ما بهنَّ جوابُهُ

على الفورِ تمضي كي يُقيمَ بسمعهِ

فمِن بعدها شقَّ السّكونَ اضطرابُهُ

تأنَّى قليلًا كي يُكفِّنَ وجهَهُ

فكفَّنَتِ الأقلامَ عنهُ ثيابُهُ

لمَن يشتري بنَّ الصّباحِ؟ جريدةً؟

وما ذاقَ دفءَ العاشقينَ كتابُهُ

وحيدٌ حزينٌ مثقلٌ بشواهدٍ

ففي قلبِها لو تعلمينَ سحابُهُ

ألَا إنَّ تاريخَ العروبةِ ما ترى

يثورُ جنونًا إن رفضنا صوابُهُ

يمدُّ الدّلاءَ السّاقياتِ لغيرنا

ببئرٍ ولم يُشفقْ علينا انسكابُهُ

لذا مات حيًّا مَن تخلَّدَ بعدها

وما ماتَ، كلّا، كانَ ذاكَ سرابُهُ...

تمّت بحمد الله